محاضرة بعنوان : الحرف في الجزائر العثمانية

الاستاذ : خميسي عبد الحميد

المستوى : 1 ماستر

مقدمة : كانت مدن الجزائر في فترة 1519 – 1830 م من النوع المتوسط إذا ما قارناها بعواصم و مدن أخرى داخل الإمبراطورية العثمانية كمدن اسطمبول و حلب ، القاهرة او حتى تونس . تراوح سكان مدينة الجزائر مثلا مابين 30000 نسمة في عهد ليون الإفريقي الى ما يقارب 150000 في عهد الأب دان اي القرن 17م. اما مدن الإيالة الأخرى مثل قسنطينة و تلمسان فكان أقل بكثير . و من هنا نستنتج أن عدد السكان الحضر كان قليلا اي أقل من 10بالمئة تقريبا. و ترتب عن هذا ضعفا واضحا لقطاع الصناعة و الحرف و عدد المشتغلين بهذا القطاع . أما السؤال الذي يطرح نفسه فهو ما إذا كانت الحرف حكرا على المدينة ام كان للريف دورا فيها ؟

التركيبة السكانية للمدن الجزائرية : تكون سكان المدن الذين يعيشون داخل الآسوار من فئة الحضر و هم من السكان القدامى للمدن و الذي يعود تواجدهم الى الفترة الإسلامية و انضافت إليهم جاليات أندلسية قدمت الى بلادنا منذ بدايات حروب الإسترداد الإسبانية و الى غاية طرد الموريسكيين من إسبانيا في بداية القرن 17م. و ربما يعتبر هؤلاء أكثر استحقاقا لتسمية الحضر لأنهم كانوا فعلا متحضرين فقد جلبوا معهم الثراث الجضاري الأندلسي من زراعة و صناعة و فن .و بالإضافة الى الحضر كانت تعيش جماعات أخرى خارج أسوار المدن في أحياء فقيرة و مساكن هشة و يسمونهم البرانية . و إذا كان هؤلاء يقيمون خارج أسوار المدينة فإنهم يمارسون أعمالهم داخلها . كما ضمت المدن جماعات أخرى كاليهود و العبيد و الأسرى .

تنظيم النشاط الحرفي : ينتظم النشاط الحرفي وفق القوانين و الأعراف المتداولة منذ وقت بعيد . و بما أن الحرف قسمت الى نبيلة و وضيعة فقد أسندت و قسمت تقسيما إثنيا ، فالمهن النبيلة كانت من اختصاص الحضر و حتى الأتراك بينما المهن الوضيعة كانت من اختصاص اليهود و البرّانية . و قد توصلت عائشة غطاس الى احصاء99 حرفة بمدينة الجزائر كانت تتوفر على أمناء نذكر منهم : أمين السمانين – أمين الخبازين – أمين الجزارين – أمين الحواتين – أمين البنائين – أمين الجزازين ( صناع الزجاج) و غيرهم. و هذه الجماعات المهنية يمكن تقسيمها وفق تخصصاتها :

* جماعات متخصصة في الانتاج .
* جماعات متخصصة في الخدمات .
* جماعات متخصصة في التسويق .

أما في مدينة قسنطينة و قد عرفت أنذاك بازدهار النشاط الحرفي فقد توصل شارل فيرو من إحصاء 34 حرفة من خلال ترجمته لمخطوط مجهول و تم نشره في المجلة الإفرقية عدد 16 لعام 1872 . و ذكر العديد من الحرف التي كانت من اختصاص البرانية كحرفة البناء التي كانت من اختصاص القبائل و كان يعني بهم قبائل الشمال القسنطيني و خاصة من زواغة التي صارت اليوم تعرف بالشيقارة .بينما تخصص التوانسة في صناعة الحلوى و خاصة الزلابية و كذا اللبلابية و لعل رسوخ هذه الحرفة في قسنطينة الى يومنا هذا يرجع الى ذلك العهد . فلا يزال تحضير طبق الحمص من أهم اختصاصات المطاعم الشعبية في هذه المدينة . أما اليهود فكان تنظيف قنوات الصرف من اختضاضهم و عرفوا بالكنافين . و لم تقتصر الصناعات الحرفية على المدن بل كانت منتشرة أيضا في الأرياف و يذكر فيرو بعض المنتوجات التي كانت تباع في قسنطينة بينما تصنع في جبال القبائل خاصة في بني عباس و بني يعلى و زمورة و بني ورثلان كالبرانس بينما تباع ايضا البرانس و الحياك الصحراوية و كذا القنادر التوغورتية و السوفية والجريدية.

كما كانت الجزائر تستورد بعض السلع من تونس و المغرب و مصر و الشام و تركيا و مرسيليا .

خاتمة :من خلال ما عرضناه يتبين أن الصناعات كانت متنوعة و تعكس الطابع المحلي و الذوق الفني لأهل البلاد غير أن تدهور الوضع العام للبلاد مطلع القرن 19 م و تطور الصناعة في اوربا قلل من فرص التوسع التجاري ضف الى ذلك عدم امتلاك الجزائر أسطولا تجاريا و تعرضها للحصار البحري الدائم حرم هذه الصناعة من أي تطور و لاننسى أيضا و لنكن موضوعيين حالة الانحطاط التي كان يعاني منها العالم الاسلامي أنذاك .

 انتهى.